الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

Abul Azayem

www.abulazayem.com

Version 1.5 / October, 2024

العابدون

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

العابدون

« إياك نعبد وإياك نستعين »

(قرآن كريم)

بحث تحليلي
في حكمة العبادة

تأليف

الإمام

أبي العزائم

حقوق الطبع للناشر

مختبر أبو العزائم

دار المدينة للطبع والنشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

يسر لجنة إحياء آثار الإمام أبى العزائم أن تقدم للعالم الإسلامى كتاب " العابدون" وهو أحد تلك السلسلة من الكتب التى ألفها الإمام مفسراً ومعلقاً على الآية الكريمة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ التوبة ١١٢، وقد وفقنا من قبل إلى طبع كتاب " التائبون" ، ولم يكد يتم طبعه حتى سارع إلى اقتنائه كل من عرف أبا العزائم أو سمع عن علمه الفياض وتمكنه فى ناحيتى الشريعة والحقيقة، وها نحن نقدم الحلقة الثانية من هذه السلسلة المتصلة الحلقات، ونعنى بهذه الحلقة كتاب " العابدون" ، وإذا كان كتاب " التائبون" قد بين لنا التوبة وأركانها وأنواعها، فإن كتاب " العابدون" سوف يرشدنا إلى الطريق الصحيح والحكمة البالغة التى لأجلها شُرعت العبادة، فما أحوجنا فى هذا العصر المادى أن نعرف الطريق السوى إلى العبادة الصحيحة حتى لا نضل طريقنا، ونحن إذ نقدم هذا السِفر الجديد نأمل أن نقوم فى القريب بطبع باقى حلقات هذه السلسلة الكريمة.

لجنة إحياء آثار

الإمام أبى العزائم

العبادة الخالصة

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الزمر ١١.

لا تعبد لتنال أجراً فتكون عبد الأجر، ولا لتنال قرباً فتكون عبد القرب، ونزه سرك من الرغبة فى غير ربك وهاجر من أفق روحك حتى لا تحيزك الآفاق ولا تحيط بك الأرجاء ولا تحجبك الأجواء ولو أشرفت على القدس الأعلى فإن القدس حجاب القدوس والنور برزخ بين المتمكن وبين ربه فاحفظ البرزخ عبودية وتجاوزه تألهاً إلى ربك، ولا تعظم ما تقربه إلى الله ولو قربت نفسك التى بين جنبيك، فإنك لو علمت لمن تتقرب وبما تتقرب لعلمت مقدار النعمة عليك بما تقربه، ولرأيت مقعد صدق دون مرادك إذا حفظت مرتبتك، وكيف يأنس من فارق المكان فى الدنيا بمكان فى الآخرة إذا حجبه عن مكون الأكوان ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

الأنعام ٦٢-٦٣.

الحب فى الله

أبداً قلوب العاشقين تعذب — وعذابهم راحٌ لهم بل أعذب
إن عاينوا وصف الجمال تمايلوا — والنار فى أحشائهم تتلهب
يا ويحهم مما بهم فى دهشة — وحبيبهم أنواره لا تحجب
قد كنت أعذلهم إلى أن ذقت ما — ذاقوا فصرت لهم أحن وأرغب
الكل طمعاً فى الجنان تعبدوا — وأنا القتيل بحبه لا تعجبوا
غيرى يميل إلى الجنان ويطلب — وأنا الذى منها أفر وأهرب
الكل خوفاً من جحيمك سيدى — صاموا وصلوا عن رضاك تحجبوا
نار الجحيم مع الرضا هى جنتى — أما النعيم بغيره لا أرغب

العابدون عمال الله

ليس من علم الشريعة فعمل بها مراعياً الأحكام وصحة الرواية وكمال التشبه فى التقليد فقط بعامل من عمال الله، فإن العامل لله سبحانه وتعالى قبل أن يعمل العمل يجب أن يلاحظ أنه يعمل ليرضى ربه وليؤدى حقه سبحانه وليطيع أمره وليست طاعة الأمر وحدها موجبة للرضى ولا لتأدية الحقوق، فعامل بعلمه غير محافظ على رعاية الأدب مع الله تعالى ليحقق نفسه بمشاهد التوحيد التى يقوم بها لحق ربه حتى يتقيه حق تقاته وتمكنه فى رعاية توحيد الله تعالى. ولا يكون ذلك إلا إذا تحقق بوحدة الأفعال مع إثبات وجوده العبدى ليشهد الحضرتين فيشهد عبداً عابداً ويشهد رباً منفرداً بالإيجاد والإمداد وذلك هو قيامه بالحق الذى هو لله تعالى، ومن حجب عن شهود هذا المشهد وحصل أمثال الجبال من العلم وملأ بطاح الأرض وصفاح السماء عملاً، لا يقبله الله تعالى لأن الله تعالى لا يقبل عمل به الشرك الخفى، فكيف يقبل عمل من اعتقد أنه هو الفاعل وأنه يعمل لربه بنفسه.

تعريف العبادة

العبادة اعتقاد عند أهل التسليم، وشهود عند أهل الكشف أن للمعبود سبحانه قوة غيبية فوق الأسباب يقدر بها على النفع والضر، مع غاية الحب ونهاية الذل والخضوع – ففى اللغة: التعبد: الخضوع والتذلل – فمن أحببته ولم تكن ذليلاً خاضعاً له لم تكن عابداً له، ومن خضعت له ولم تكن محباً له لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً ذليلاً خاضعاً. والمنكرون محبة العباد لربهم منكرون حقيقة العبادة، فإن العابد الحق فى نهاية الحب وغاية الذل والخضوع لمن يعبد، وفى كمال الاعتقاد أن له قوة غيبية فوق الأسباب الظاهرة يقدر بها على النفع والضر، ومن أنكر أن الله محبوب للعباد – بل أنه غاية بغيتهم، ووجهه العلى نهاية مقصدهم – فقد أنكر أنه إله يعبد، إذ العبادة – كما قررنا – نهاية الحب وغاية الذل، ومن لا حب له لا عبادة له. والخاضع الذليل بلا حب ليس بعابد، والعاشق بلا خضوع ولا اعتقاد ليس بعابد. إذاً فالعابد بلغ نهاية المحبة لله وغاية الخضوع والذلة لجنابه، واعتقد بقوته الغيبية وسلطته القهرمانية التى هى فوق الأسباب، فيكون بتلك المعانى كلها عابداً، وبترك معنى منها ليس بعابد.

وإن العباد حقاً هم المتحققون بكمال الحب لله الحب الذى حقر فى أعينهم الكونين وأنساهم ما سوى الله فذكروه كثيراً وتلذذوا بكمال الذل لعظمته وكمال الخشوع لعزته لذلك فإنه سبحانه وتعالى قدم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الفاتحة ٥، على قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، لأن العبادة غاية المقصد، والاستعانة وسائل لها، والمقاصد تقدم على الوسائل للتعظيم، ثم ذكر اسمه قبل ﴿نَعْبُدُ﴾ بقوله ﴿إِيَّاكَ﴾ الفاتحة ٥. إشارة إلى أن العابد لا يكون عابداً إذا لم يكن محق الحب من قلبه كل غير، وسلب الذل لله كل من سواه.

الغرض من العبادة

العبادة هى المقصد الأسمى للخلق أجمعين التى لأجلها خلق العرش والكرسى، والإنس والجن والملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ الذاريات ٥٦-٥٧.

فالمتهاون بالعبادة متهاون بالمقصود الأعظم، والمتساهل فيها متساهل بالحكمة التى لأجلها خلق، وكل عابد لله متحقق بمعونة الله، وليس كل مستعين بالله متحققاً بعبادة الله، لأن العبد قد يستعين بالله فيما ليس عبادة.

إذا تقرر ذلك فالعبادة كلمة جامعة لأنواع الخير كله، إذ العابد محب لله خاضع لله، عامل بأحكام الله، محافظ على سُنة رسول الله ﷺ، قائم بتأدية جميع شعب الإيمان، من بر وصلة، وعفو وإحسان، وإكرام وتواضع، وتوبة وإنابة، ويقين وتوكل وتفويض، وغير ذلك من المعانى التى يحبها الله، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى، عند ثنائه ومدحه لطائفة من عباده يصفهم بالعباد، فعندما أراد سبحانه وتعالى أن يثنى على الملائكة قال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الأنبياء ٢٦، وعند ثنائه على عباده بما جملهم به من الصفات قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ الفرقان ٦٣، وقال: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ الأنبياء ٧٣، وقال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الزمر ٥٣، ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ الزمر ١٦.

العبادة عمل من أعمال القلوب والجوارح

العبادة فى الحقيقة هى أكمل أعمال القلوب والجوارح معاً، لأن المحبة والذل والاعتقاد والمشاهدة فيها من أعمال القلوب، والحركات البدنية – من صلاة وزكاة وصيام وحج ونطق بالتوحيد ومسارعة إلى الخير – من أعمال الجوارح، فالعبادة مع كونها المقصد الأعلى فى الحقيقة ونفس الأمر، هى حقيقة الشكر على سوابغ نعمائه وعميم آلائه، قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ سبأ ١٣، فجعل سبحانه وتعالى الشكر عملاً، وجعل الشاكرين قليلين، فالعابدون على التحقيق قليلون.

خلصوا العبادة من الشرك

ليست العبادة مجرد أعمال تؤدى بحركات وسكنات، أو تكاليف يقوم بها العابد فى آنات مخصوصة ولحظات معدودة، فإن تلك الأعمال ليست هى المقصودة بالذات، بل المقصود روحها، وسرها، وحكمتها، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ الحج ٣٧، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥، وقال عز من قائل: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة ١٨٤، وقال جلت قدرته: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ التوبة ١٠٣، فالمصلى المشاهد روح الصلاة لا يقع فى فحشاء ولا منكر، والصائم التارك ملاذه وشهواته المتألم بالجوع والعطش، هو فى خير لذة بما يتألم به غيره، وباذل الأموال – مع كونها خرجت من ملكه وأنقصت ماله حساً – تزكت نفسه بها وتطهرت.

فلمشاهدى روح العبادة مشرب طهور لا يمازجه شئ لكمال توحيدهم الخالص من الشوب، فإن أكثر العمال يشوب إخلاصهم فى أعمالهم كدر بعض البواعث على العمل كالرغبة فى الجنة، ونيل الملاذ الباقية. ولكن العباد المخلصين، صفت سريرتهم من شوب الشرك الخفى والأخفى، فسقاهم ربهم شراباً طهوراً صافياً، مما يكون مزاجاً لشراب غيرهم، يطيب بقطرة منه شراب غيرهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا

كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ الإنسان ٥-٦، فبين سبحانه وتعالى أن شراب الأبرار يناول لهم فى كأس، وهذا الشراب ممزوج بطهور العين الذى هو خالص شراب عباد الله المخلصين فى توحيده، فهذه العين – التى يفجرها عباد الله تفجيراً – إنما تجلى لسرهم من حقيقة التوحيد بالتوحيد، حتى تراءت لهم أنوار معنى الصفات والأسماء بسر اتحاد التوحيد عن تنزل المزيد، فهم – مع خالص توحيدهم – تتراءى لهم معانى الأسماء والصفات بمعانى واحد وأنوار أحد، وهذا الذى جعل العباد فى مقامات المحبوبين لله تعالى، لمحبتهم له سبحانه وتعالى.

العلم والعمل فى العبادة

للعبادة ركنان: علم وعمل. وحقهما أن يتلازما لأن العلم كالأس والعمل كالبناء، وكما لا يغنى أس ما لم يكن بناء، ولا يثبت بناء ما لم يكن له أس، كذلك لا يغنى علم بغير عمل، ولا عمل بغير علم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر ١٠، والعلم أشرفهما لكنه لا يغنى بغير عمل، ولشرفه قال رجل للنبى ﷺ: أيما الأعمال أفضل يا رسول الله؟ فقال: العلم، فأعاد عليه السؤال ،فقال: العلم، فقال الرجل فى الثالثة أسألك عن العمل لا عن العلم، فقال عليه الصلاة والسلام: (عمل قليل مع العلم، خير من عمل كثير مع الجهل)، وقال ﷺ: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، فالعلم ضربان: نظرى وعملى، فالنظرى ما إذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل كمعرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة السماوات والأرض وما أشبه ذلك. والعملى ما إذا علم لم يغنى حتى يعمل به كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبر الوالدين.

والأعمال ثلاثة أضرب، عمل يختص بالقلب وعمل يختص بالبدن وعمل يشترك فيه البدن والقلب. والعلم إذا نظر إليه من حيث تحصيله لاكتسابه عمل وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصور فى القلب خرج فى تلك الحال عن أن يكون عملاً، وللإنسان فى استفادة العلم وإفادته ثلاثة أحوال، استفادة فقط، وحال استفادة ممن فوقه وإفادة لمن دونه، وحال إفادة فقط.

ويجب على الإنسان أن يستفيد فى جميع أدوار حياته ففوق كل ذى علم عليم، فقد نبه تعالى على الحاجة إلى الاستفادة بما حكاه من قول سيدنا موسى عليه السلام لصاحبه: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ الكهف ٦٦، وانظر إلى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ النمل ٢٢، فالإنسان يفتقر إلى التعليم من الصغير فى بعض العلوم والواجب على الإنسان أن يكون مستفيداً أو مفيداً قال ﷺ: (الناس عالم ومتعلم وما سواهما همج).

مراتب العلم

العلم يهتف بالعمل ... فاعمل تنل كل الأمل
بالعلم يخشى الله من ... كل عليم قد وصل
العلم كشف الحُجب ... عن سر الحقائق فى الأزل
علم يقين بعده ... عين اليقين بلا وجل
من بعده حق جلى ... حق اليقين لمن عقل
من بعد ذا فوق المقام ... كبرى الولاية فاتصل
وصل هو الفصل الذى ... يجلى الضياء لمن نهل
من بعد ذلك حظوة ... للفرد تجلى والبطل
مجلى كمال باطن ... عن كل جهدٍ أو أمل
نور خفى غيب جلى ... للفرد فى التفريد حل

العدل والإحسان فى العبادة

تنقسم العبادة إلى قسمين: واجب ومندوب. فالواجب يقال له العدل، والمندوب يقال له الإحسان، وهما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ النحل ٩٠، فالفرض أو العدل تحرى الإنسان ما إذا عمله أثيب وإذا تركه عوقب، والندب أو الإحسان تحرى الإنسان ما إذا عمله أثيب وإذا تركه لم يعاقب، والإنصاف من العدل، والتفضل من البر والإحسان، فالإنصاف هو مقابلة الخير بالخير والشر بالشر بما يوازيه، والتفضل والبر مقابلة الخير بأكثر منه والشر بالشر الأقل منه. فالإحسان والتفضل احتياط فى العدالة، والإنصاف ليأمن به من وقوع خلل فيه. وذلك أنك إذا ازدت فى إعطاء ما عليك ونقصت فى أخذ مالك فقد احتطت وأخذت بالعزم كدفع زيادة زكاة إلى الفقير وترك ما أحل لك من مال اليتيم. فالعدالة إن كانت جميلة فالتفضل أحسن منها، وكذلك قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ الشعراء ٤١، وقال سبحانه عن الإحسان: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ البقرة ٢٣٧، وقال: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ البقرة ٢٣٧، إشارة إلى أن الإحسان والتفضل أحسن ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس ٢٦، فالإنسان إنما يكون محسناً متفضلاً بعد أن يكون عادلاً منصفاً. فأما من ترك ما يلزمه ثم تحرى ما لا يلزمه فإنه لا يقال له متفضل، ولا يجوز تعاطى التفضل إلا لمن كان مستوفياً وموفياً لنفسه أما الحاكم المستوفى والموفى لغيره فليس له إلا تحرى العدالة والنصفة.

حكمة العبادة

للعبادة حكم كثيرة لا تحصى، منها تطهير النفس وجلب صحتها. لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى لاستعباد عبيده واستخدام خدمه، فإن الله غنى عن العالمين، ولا ليؤدبهم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ البقرة ١٨٥، بل كلفهم سبحانه وتعالى ليزيل أنجاسهم وأمراضهم النفسية، لينالوا بفضله ورحمته حياة أبدية وسلامة باقية. لقد وهب الله الإنسان القُوى اللازمة لتحصيل الفضائل فى ابتداء حياته، فمن لم يحصل لنفسه تلك الفضائل فى وقت التحصيل ضعفت القُوى عن التحصيل وفاته

الخير فلا يمكنه بعد الفوات قبول ذلك، مثل الفحم إذا صار رماداً فلا يقبل بعد ذلك ناراً، فمن استمر فى كفره وفسقه وتمادى فيه صار إما ميتاً أو مريضاً أو أصم لا يقبل الشفاء ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ النمل ٨٠-٨١، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة ١٧١، وقال عز وجل: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ محمد ٢٠، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ التوبة ٢٨، وقال تعالى فى المؤمنين: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ يس ٧٠، وقال فيهم: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ السجدة ٥٤، فمن استفاد بالحياة والصحة والطهارة قبل أن تخبو عنه هذه القوى صار حياً سميعاً بصيراً طاهراً، وتزود بخير الزاد كما أمره تعالى بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ البقرة ١٩٧، واهتدى بالدليل الموصوف فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ الشعراء ٥٢-٥٣، وائتمر بقول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ آل عمران ١٣٣، واقتدى بالموصوفين بقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ المؤمنون ٦١، فجدير أن يفلح فينال السعادة كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ البقرة ١٨٩.

ومن حكم العبادات شكر المنعم سبحانه على ما أنعم، فإن النفس إذا تطهرت من نجاستها وزالت عنها أمراضها، أُهلت لأن تكون مرآة مصقولة لنقش حقيقة العلم فيها فتنكشف لها حقيقته التى بانكشافها لها تنبلج أنوار الحق، فتعلم علماً نسبياً بعض المواهب والنعم المفاضة فضلاً من الله التى لا تحصى عداً ولا تستقصى حداً، ثم تكاشف بما أعده الله للإنسان من النعم التى لا تتصورها الخيالات من شهود الجمال الإلهى، والتنعم بالنعيم الأبدى ودوام بهجة لا تزول، فتكون العبادة بعد تلك التزكية شكراً لمنعم متفضل ومسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر وفضله العظيم ونعمته الحقيقية، قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ سبأ ١٣، وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران ١٣٣، فتكون العبادة جامعة لمعانى الكمالات كلها، فهى تزكية للنفوس وشكر لمنعم متفضل وهاب ومسارعة إلى نيل الخير الحقيقى والنعيم الأبدى والرضوان

الأكبر، وهناك حكمة علية أخرى يشهدها أهل المعرفة بالله لا يمكن أن يصرح بها إلا بالإشارة.

العبادة عمل جليل جداً تبتهج بها النفوس الطاهرة، ونسبة شريفة تفتخر بها الأرواح الطاهرة، ومشهد لا يوصف جماله ولا كماله تسارع إليه الأرواح الملكية، ومواجهة لملك عظيم كبير متعال، وتمثل بين يدى واحد أحد فرد صمد منعم متفضل رزاق كريم.

الأمراض التى لا يمكن إزالتها إلا بالعبادة

يصاب الإنسان بأمراض نفسانية لا يمكن أن تزول عنه إلا بالعبادة، كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء ٣٧،ثم أمره أن يزيل العجلة من نفسه فقال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء ٣٧، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب ٧٢، ثم أمره بالعلم والعدل فى غير موضع من كتابه، قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ النساء ١٢٨، ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر ٩، فأمره باتقاء الشح بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ المعارج ١٩-٢١، ووصفه بالكفور والقتور فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ الإسراء ٦٧، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ الإسراء ١٠٠، فالتقتير شئ غريزى موجود فى الإنسان وليس هو بشئ طارئ عليه ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف ٥٤، ثم نهى عن أكثر الجدل.

فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى فى الدنيا، كما يجب ووقت ما يجب وبقدر ما يجب، وأن يميط عنه ما يضر ولا ينفع قبل خروجه من الدنيا حسب ما وردت به الشريعة، فإنه إن لم يتطهر من النجاسة ولم يزل أمراض نفسه لم يجد سبيلاً إلى نعيم الآخرة، بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا. فالمتطهر تُرفع عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقاً والباطل باطلاً فلا يشغله إلا ما يعنيه، ولا يتناول إلا ما يعينه، فيحيى حياة طيبة كما قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ النحل ٩٧، ولا يصير ما حصله فى الدنيا وبالاً عليه وعذاباً، كما قال الله تعالى فى الكفار:

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ التوبة ٨٥. فالمتطهر يصبح قلبه محل السكينة والأرواح الطيبة كما وصف الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ الفتح ٤، ويعرف الطريق التى بها التوصل إلى جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، فيسارع فى الخير ويسابق إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السماوات والأرض، ومتى بقيت نجاسته وتزايدت، صار قلبه مقر للشرور والآثام، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ الشعراء ٢٢١-٢٢٢، فلا يجد سبيلاً إلى سعادة الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ المعارج ٣٨-٣٩، فنبه على أنه لا يصلح لجنته ما لم تتطهر ذاته عن أشياء هى مخلوقة فيها، وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ آل عمران ١٧٣.

فالواجب على الإنسان أن يراعى هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه المطلوب حتى يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ النحل ٣٢، وقد يقع للإنسان شبهة فى أمر هذه النجاسات فيقول: أترى أن ذلك من عند غير الله؟ فإن كان من غيره فمن أين مصدره؟ وإن كان منه فما معنى وجوده فى الإنسان ثم أمره بأن يزيله؟ فأقول: ما من شئ أوجده الله إلا وفيه حكمة ومنفعة وإن لم يعرف ذلك الإنسان، لكن من الأشياء ما نفعه فى وقت مخصوص، أو إذا كان على قدر مخصوص، ثم إذا استغنى عنه أو زاد على قدر ما يحتاج إليه يجب أن يزال، والشواهد على ذلك كثيرة، انظر إلى حبل السرة بعد ولادة الطفل فقد كان ذلك الحبل طريق الغذاء للطفل ولكن بعد الولادة لا يحتاج إليه ويجب أن يُزال حتى لا يموت الطفل وكذلك الشعر والظفر يحتاج إليهما ولكن يجب ألا يزيدا عن حد مخصوص.

الفضيلة وسط بين رذيلتين

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ الإسراء ٢٩، فالبخل رذيلة من الرذائل وهو حبس المال عن إنفاقه فى الأوجه المشروعة، والإسراف هو رذيلة كذلك، وهو صرف المال بغير ضابط ولغير الأوجه المطلوبة، والله يريد من العبد أن يكون وسطاً فى كل شئ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة ١٤٣، فلا يسرف ولا يقتر على نفسه. ومعلوم أن القوى قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر، فبتهذيب قوة الشهوة تنتج العفة فتحصل للإنسان مناعة من الشره ويتحرى المصلحة فى المأكول والملبوس والمشروب والمنكوح وطلب الراحة، وغير ذلك من الملذات الحسية، وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة، فيتحرر من الجبن والتهور والحسد ويتحرى الاقتصاد فى الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك، وبإصلاح قوة الفكر تحل الحكمة حتى يحترز من البله والخبث ويتحرى الاقتصاد فى تدبير الأمور الدنيوية، وبإصلاح هذه القوى يحصل الإنسان على قوة العدالة، فيقتدى برسول الله فى تزكية نفسه وحسن معاملته لغيره، فنفس الإنسان معادية له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يوسف ٥٣، وقال ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك)، فمن أدبها أو قمعها أمن ظلمها، دليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ طه١١٢، أى لا يخاف أن تظلمه نفسه الشهوانية، فالأعمال الصالحة حصن منها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥، فإذا أقام المسلم الصلاة إقامة تجعله عالماً بمعنى ما يعمل متيقناً نسبته فى عمله وكمالاته الحقيقية عند مواجهته فى الصلاة التى هى أضداد صفات الحق، شهد بعين سره نور مواجهة إله عظيم كبير معبود علىٍّ موفق، فينجذب بالكلية إلى التخلق بتلك الأخلاق الربانية والتجمل بالحظوة لتلك الجلوة العلية، ويقوى اشتياقه إلى دوام مواجهة هذا النور المشرق الذى هو قرة عين العارفين وسر قوله ﷺ: (وجعلت قرة عينى فى الصلاة)، وقوله ﷺ: (أبردوا بالصلاة)، ومن لم تزك نفسه لا تصح له تلك المواجهة فيقف فى الصلاة بجسمه وقلبه يتقلب فى طمع أو شح أو هوى. لم يكن ذلك إلا لأن الله تعالى محجوب عن سره، بل

لأن سره محجوب عن مواجهة الحق ونفسه مسجونة فى نجاستها ولقسها ودنسها، والأولى للمسلم أن يسارع إلى أهل الله الذين تزكى بصحبتهم نفسه ويزول بحبهم لبسه، حتى تشرق عليه أنوار القربات وتصح له أسرار المواجهات، وأكمل المواجهات هى عند إقامة الصلاة.

مشهدان فى العبادة

إن إثبات صفة العبادة الحقة لا يتحقق للعبد إلا بمعنيين لابد منهما، وبدونهما لا يكون العابد عابداً إلا عند نفسه، وهما:

١ شهود أنه عبد له وجود بالله تعالى، وعليه حقوق لله سبحانه وتعالى.

٢ وشهود المنة عليه بتوفيق الله له بالقيام بما افترضه عليه وما ندبه إليه، حتى يكون عبداً عاملاً بمقتضى العبودية موحداً منزهاً الحق جل جلاله عن الشرك فى وحدة الأفعال، فإن جهل حقيقته فى وجوده بالله تعالى وعبد الله الف سنة غير مشاهد منة الله عليه ونعمته العظمى الواصلة إليه بتوفيقه بما كلفه به وطلبه منه، كان عمله ممزوجاً بالشرك محجوباً عن مكاشفة أنوار التوحيد، فإذا وقف العابد المشاهد فى صلاته استحضر أنه عبد مكلف وشهد منة الله عليه بالتوفيق والمعونة، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وواجه بسره وروحه وقلبه قدس الجبروت الأعلى، وبجسمه بيت الله الحرام فكان جامعاً فارقاً، وما عمل عملاً من القربات إلا وهو على هذا الكمال الذى كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ممن بلغ بهم الكشف مبلغاً لا يبلغه أحد بعدهم من العابدين، فإنهم رضى الله عنهم وأرضاهم كان أصغرهم فى جمع الجمع مع فرق الفرق فى آنٍ واحد، والحقيقة أنه لا جمع إلا بعلم لدنى ولا علم لدنى إلا بعلم شرعى يكون العامل فيه عاملاً عن علم بالأحكام وفهم للحكمة، سر قوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم)، وإنما الجمع الذى يعنيه رضى الله عنهم هو ذوق أسرار التوحيد بعد استحضار معانى الصفات والأسماء، ثم مشاهدة آيات الواحد سبحانه دالة على أنه القادر الحكيم الظاهر الباطن المريد الفاعل المختار.

التعصب للدين والعبادة

ليس التعصب للدين بالإنكار على الفرد المتهاون بحالة تنفر، ولا بالتشنيع على المتساهلين بأساليب تبغضهم، إنما التعصب للدين حقيقة أن تتعصب لدينك أولاً على نفسك لتجملها، فتقوم عاملاً بحقيقة أحكامه، حتى يسهل عليك أن تعمل ما كان يصعب عليك، ثم تجاهد إخوانك كمجاهدتك لنفسك، فإذا أنست من نفسك ومن إخوانك العمل بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وجب عليك أن تنبه قلوب إخوانك إلى كمالات الدين بعملك ابتغاء مرضاة الله، وبقولك الحكمة مع المحافظة على أكمل ما أوجبه الشرع من العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق، ومع الزهد فيما لا حاجة لك إليه، وطلب ما لابد لك منه من وجوهه الشرعية، وبذل ما لا يضرك بذله لأهل الحاجة، حتى تكون إماماً تعمل وتقول، سر قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ آل عمران ١٠٤، ومعنى ذلك أن الذين يأمرون بالمعروف لابد أن يكونوا على أكمل الأوصاف المرضية شرعاً، من الغيرة على الدين والعمل بالقلب والجوارح واللسان، فإذا تكون فى المجتمع الإسلامى من تفضل الله عليهم بمواهب التعصب للدين أشرقت أنوارهم على جميع المجتمع فتكونت فيه عصبية للدين، لا يخافون الموت ولا يخشون الفوت، يرون الحق أولى بهم من أنفسهم وأعز عليهم من أرواحهم، وإنه الخير الحقيقى المقصود لذاته، وكل خير تدعو إليه النفس لم يكن بالحق وللحق يرونه شراً وهلاكاً، عند ذلك ينزل الله السكينة عليهم ويثيبهم فتحاً قريباً.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ النور ٥٥.

بين الله تعالى بهذه الآية الشريفة أن جميع الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالجسد الواحد، كل واحد منهم ككل عضو من الجسد، لأنه أخبر سبحانه بما أعده للجميع من الاستخلاف فى الأرض وتمكين الدين لهم، فجعل هذا الفضل كالخير الذى يمنحه الوالد لأولاده الذين هم فى رتبة واحدة من النسب، بل هذا النسب الإلهى هو النسب حقاً، الذى

به نيل الخير فى الدنيا مجداً وعلواً فى الأرض بالحق، والفوز بفردوس الله الأعلى يوم القيامة، وكفى بنسب الإسلام شرفاً أن ننال به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

أقسام العبادة

العبادة تنقسم إلى خمسة أقسام وهى المقصودة فى الحديث الشريف: (بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا).

وسنفرد لك قسم من هذه الأقسام باباً نشرح فيه حكمته والله المستعان.

العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها

معلوم أن العقيدة هى عقد القلب على علم بمعلوم عقداً قوياً مؤكداً، وفى ذلك الإشارة إلى أن المسلم يجب عليه أن يكون علمه التوحيد عن يقين وتمكين لأن الموقن حقاً بالتوحيد هو الذى يسمى مسلماً حقاً لقيامه بشعائر الإسلام عن وجد وشهود، والعقيدة الإسلامية هى تصديق القلب بحقيقة ما عليه الأمر فى ذاته فى نفس الأمر، وطريق ذلك خبر الصادق الأمين بعد أن يكون المتلقى صحيح الجسم كامل العقل سريع الفهم قوى الفكر معافاً من أمراض الحظ وعمى الهوى، وبذلك يكون مؤمناً حقاً قائماً بما أوجبه الشرع عاملاً من عمال الله خليفة من خلفاء ربنا سبحانه وتعالى، وبدون تلك الشروط لا يبلغ المسلم الكمالات إلا بقدر ما تجمل به من تلك الشروط التى هى كالآلات والأدوات لكشف أسرار الدين وفك رموزه. فإن المعانى الإلهية من الكمالات الربانية والجمالات والجلالات لا يدركها العقل من حيث إنه عقل إلا بقدر ما يتضح له من الدلائل، وأكثر الدلائل معان قائمة بمبان مقيدة بأدوات وآلات وكيفيات تتفاوت العقول فى إدراك خواصها، فضلاً عن غوامض أسرارها، وكيف لا والإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام وهو يجول بعقله فى ميدان الآثار، يرفع الخلف أسس السلف حتى عصرنا هذا، ولا تزال خواص الكائنات تنكشف شيئاً فشيئاً للعقول وتظهر

مكنوناتها مدهشة للمفكرين محيرة للمتأملين، ولا عجب فإن القادر البديع الحكيم خلق الكون وسخره للإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ الجاثية ١٣، وأمد الإنسان بالعقل وجعل له السلطان على الآثار لتظهر حكمة التسخير، ولو نظر الناظر إلى ما اكتشفه الإنسان من خواص النباتات والجمادات والمعادن لمعالجة المرضى، وما استخدمه بما وهبه الله من قوة العقل من البخار والكهرباء، وما اخترعه من أنواع الصناعات الغريبة والفنون العجيبة، التى كلها إما لراحة الإنسان وخيره أو لراحة فئة وشقاء آخرين. فالأول كعلم الطب والعمارات والتربية وعلوم الحكمة العملية، والثانى كفنون السياسات وتدبير الممالك واختراع الآلات الجهنمية لقهر بنى الإنسان، ومع هذا كله فلا تزال الآثار كنوزاً لم تفك رموزها وخزائن خيرات لم تفتح أبوابها ورياض أفكار لم تفتق أكمامها، وهى بما فيها من الخواص معارج لمن سبقت لهم الحسنى ومدارج لمن سبقت لهم السوءى. فالإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا مع ما بلغه من الفنون والصناعات، عاجز عن الحيطة بخواص المادة مما أودعه المنعم المتفضل النافع المعطى الوهاب من فضله فى الآثار، ووهب لبنى الإنسان القوى التى تكشف الستار عنها للنفع العام، هذا هو أفق العقل، فإذا انكشف للعقل هذا الأفق فصار مبيناً يوقن أن لهذه الآثار مبدعاً حكيماً يصوره بقدر ما أدرك من هذه الآثار، لا بقدر ما يليق بالجناب العلى المقدس، ولا يكون الإنسان مسلماً كامل الإسلام إلا إذا شهد بنور التسليم والإيمان لا بعيون العقل والإمكان، آيات القادر الحكيم مشرقة أنوارها فى تلك المبانى، دالة على كمال التنزيه والعلو والعظمة والتقديس والكبرياء لذات الواحد الأحد سبحانه وتعالى، تنزيهاً وتقديساً يليقان بجناب الكبير المتعال الذى لا تدركه سبحانه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ولا تحوم حوالى عزته وجلاله أنوار عيون الروحانيين ولا بصائر أولى العزم المكرمين ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الزمر ٦٧، إذ لا يمكن للعقول وإن كملت ولا للنفوس وإن تزكت أن تبلغ درجة الإيمان الكامل إلا بخبر الصادق ﷺ والتسليم لحضرته المحمدية صلوات الله وسلامه عليه، وبشئ آخر لابد منه وهو النور الذى يجعله الله تعالى فى القلب فضلاً وكرماً المعبر عنه

بالعقل الموهوب، فإن العبارات لا تفى بالكمالات الإلهية بل ولا بالكمالات المحمدية إلا بمشاهدة بنور الإيمان وتسليم حق وفقه للبيان، ولو أن كل فرد من بنى الإنسان وهبت له تلك المواهب لما اختلف اثنان فى الحق، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن تطالب الإنسان بمعرفة الله بقدر ما لو قصر عنه الإنسان لهلك، لأن أصغر إنسان مؤهل لأن يعرف الحق سبحانه معرفة تحصل بها النجاة من الهول والسلامة من المقت والسخط. وتتفاوت بعد مقامات أهل الخصوصيات فى هذا المجد العلى والخير الحقيقى، فمن الأفراد الخصوصيين من يهب له الله مواهب يبلغ مكاشفة المقربين، حتى لا يقع بصره إلا على وجه الله العظيم الذى يجعله الله للعبد، به يكشف أسرار هى الآن غيباً وكانت شهوداً قبل، وهى تجلى الرب سبحانه وتعالى يوم ﴿أَلَسْتُ﴾ الأعراف ١٧٢، وأخذه العهود على الإنسان بعد الاعتراف بالتوحيد والإقرار لله سبحانه بالربوبية، فإن تلك الحضرة لا يشهدها العقل وإنما تشهد بعيون الإيمان وبنور التسليم الذى يجعله الله فى قلب العبد، ولاشك أن ما ظهر عن تلك الآثار من الآيات الجلية إنما هى إشارات لكمالات المبدع الحكيم القادر ومرآة تمثل للقلوب السليمة كالمثل الذى يضرب لتقريب الحقيقة وإيضاحها بقدر ما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إبراهيم ٢٥، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ النور ٣٥، فكل إنسان لم يجعل له الله النور، تسترت عنه الآيات وحجبت عنه البينات وصار ضالاً فى فيافى الحظوظ والأهواء، وعاملاً مجداً للفوز بحظه العاجل ولذته الفانية، لأنه لم تنكشف له آيات الحق الدالة على كمال قدرته وعجائب حكمته وجميل إيجاده وإمداده وما أعده من الكمالات والنعيم الأبدى لمن اهتدى بهدى سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فيكون الذى حرمه الله من هذا النور كالأنعام بل هو أضل سبيلاً.

كل تلك المقدمات أرى أنها لابد منها، ولولا أن هذا المختصر لا يسع البيان كل البيان لاستوفيت الموضوع، وقد شرحت بعض أسرار من الآيات المنبلجة فى الآثار فى كتاب

"معارج المقربين"، وجملاً من الكمالات والمقامات التى ينالها الإنسان بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ فى كتاب "أصول الوصول لمعية الرسول"، وأشرت إلى شئ من وجوه التفكر فى السماوات والأرض وما فيهن ببيان يجعل القارئ يشهد من أسرار الآيات ما يجعله فى مزيد الإيمان وكمال الإقبال على الله سبحانه وتعالى المنعم بكل تلك النعم فى كتاب "النور المبين لعلوم اليقين" فأكتفى هنا بما بينته، ويحسن أن أقول أن العقل لا يعقل بإدراك تلك الأسرار ولا يمكنه أن يبلغ مبلغاً بالإنسان يجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، بل ولا يقتدر أن يجعل الإنسان سعيداً فى مجتمع مدنى سعادة معقولة يعم خيرها أفراد بنى الإنسان، فإن له منطقة خاصة به لا يتعداها وإن كان هو الآلة لكل الخير، فإنما يجول فى مادة موجودة ليخترع ما يلائمه أو يستنتج منها نتائج معنوية تدل عليها بطريق الالتزام مما قد يخطئ فيه أو يصيب، فلم يبق طريق يبلغ به الإنسان الحقيقة والخير الحقيقى فى الدنيا والآخرة إلا خبر الصادق الذى يقيم الحجة للعقل أنه صادق حقاً، فيسلم له ويستسلم، لديها يفوز بكل خير عاجل وآجل، ولا يمكن أن تتلقى العقيدة التى بها النجاة إلا من هذا الطريق، وقد شرحت جملاً فى كتاب "أصول الوصول" ولكن لابد أن أبين ما الحاجة ماسة إليه حتى لا يخلو هذا المختصر من أصل الأصول، فأقول وبالله التوفيق:

العقيدة المأخوذة من كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ مأخذها كتاب الله تعالى وبيان رسول الله ﷺ وما قرره بعد ذلك أئمة الهدى رضوان الله عليهم وقام بتدوينه أهل العلم المخلصون، خدمة للأصل الأول من أصول الدين الذى هو رأس المال لكل مسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء ٤٨، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ الأنبياء ٢٥، وقوله جل شأنه ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الزخرف ٩، وقال ﷺ: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة)، وقال ﷺ: (من مات لا يشرك بالله شيئاً حرمه الله على النار)، وقد أجمع المسلمون جميعاً عليها إلا ما اختلف فيه، والخلاف بينهم رضى الله

عنهم فى أمور جزئية اقتضتها مقاماتهم من العلم بالله تعالى وكلهم خائفون من الله سبحانه وتعالى، ومراتب الخوف متفاوتة، فالسلف الصالح رضوان الله عليهم خافوا وسلموا علم ما ورد مما يقف العقل دون إدراكه إلى الله تعالى إجلالاً لكلام الله تعالى، الذى هو صفة من صفاته، والخلف خافوا فتأولوا ما ورد للوسعة فى ذلك إجلالاً للجناب المقدس أن تتصوره العقول (وإنما الأعمال بالنيات)، وكلهم مؤمنون بذلوا وسعهم فى خدمة العلم وتقرير الحق والله واسع عليم.

وإنى أحب الكل وأسأل الله تعالى أن يتقبل أعمالهم بقبول حسن وأن يغفر لى ولهم، وأحب أن كل مسلم يتعلم ويعمل، فإذا تعلم وعمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وهذه هى العقيدة.

الصلاة

الصلاة عماد الدين وأساسه، وشكر المنعم المتجدد على عميم نعماه المتكررة فى كل يوم جديد، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ طه ١٤، وقال ﷺ: (الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِين)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ النساء ١٠٣، وقد اختار الله تعالى الذين مع حبيبه محمد ﷺ واختار لهم الصلاة فقال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ الفتح ٢٩، وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين على التحقيق أنهم يقيمون الصلاة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأنفال ٢-٣، وعنه ﷺ قيل: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا)، وقال ﷺ: (بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ)، فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها من الدين أضيع.

واعلم أنك فى صلاتك تناجى ربك فانظر كيف تصلى، وحافظ فيها على ثلاثة أمور لتكون من جملة المحافظين وهى: ١ الصلاة ٢ وإقامتها ٣ والمحافظة عليها، فإن الله تعالى إنما يأمر بالإقامة ويقول سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ العنكبوت ٤٥، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ البقرة ٤٣، ولم يقل سبحانه صل أو صلوا، ويثنى سبحانه على المحافظين على الصلاة فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ

بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ الأنعام ٩٢.

والمحافظة تكون أولاً: المحافظة على الطهارة، قال الله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ التوبة ١٠٨، وقال ﷺ: (لاَ يَقْبَلُ اللهُ صَلاَةً بَغَيْرِ طَهُورٍ)، وقال عليه الصلاة والسلام: (والطَّهُورُ نِصْفُ الإِيمَانِ)، وقال ﷺ: (مِفتَاحُ الصَّلاَةِ الطَّهُورُ)، فالمحافظة على الطهارة بأن يسبغ الوضوء قبل الصلاة، وبأن يأتى بجميع سُننه وأذكاره المروية عند كل وظيفة منه، ويحتاط أيضاً فى طهارة ثيابه وطهارة بدنه وطهارة الماء الذى يتوضأ به احتياطاً لا يفتح عليه باب الوسواس، فإن الشيطان يوسوس فى الطهارة فيضيع أكثر أوقات العبادة.

واعلم أن المقصود من طهارة الثوب وهو القشر الخارجى، ثم من طهارة البدن وهو القشر القريب، ثم من طهارة القلب وهو اللب الباطن من نجاسات الأخلاق المذمومة، ولا يبعد أن يكون للطهارة الظاهرة أيضاً تأثير فى إشراق أنوارها على القلب، فإنك إذا أسبغت الوضوء واستشعرت نظافة ظاهرك صادفت فى القلب انشراحاً وصفاء ما كنت تجده من قبل، وذلك للعلاقة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته، إنما هبوطه إلى عالم الشهادة كالغريب عن أهله، وكما تنحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح، فكذلك يرتفع من أحوال الجوارح أنوار إلى القلب، وبذلك أمرنا الله تعالى بالصلاة مع أنها حركات الجوارح التى هى من عالم الشهادة، وجعلها رسول الله ﷺ فى الدنيا ومن الدنيا وقال: (حُبِّبَ إِلَىَّ مِن دُنْيَاكُمْ ثَلاَثٌ: النسَاءُ، والطِيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فى الصَّلاَةِ)، فلا يبعد أن يفاض من طهارة الظاهر أثر على الباطن، فإن كنت لا تصادف بعد الطهارة وإسباغ الوضوء شيئاً من الصفاء فاعلم أن الدرن الذى عرض على قلبك من كدورات شهوات الدنيا وشواغلها أرمد عين القلب، فصارت لا تشهد باللطائف والأشياء الخفية اللطيفة ولم يبق من قوته إلا إدراك الجليات إن بقى، فاشتغل بجلاء قلبك وتصفيته، فذلك أوجب عليك من كل ما أنت فيه.

المحافظة على الصلاة

وهى أن تحافظ على سُنن الصلاة وأعمالها الظاهرة وأذكارها وتسبيحاتها حتى تأتى فيها بجميع السُنن والآداب والهيئات، فإن لكل واحد منها سراً وله تأثير فى القلب كما نبهنا عليه فى تأثير الطهارة بل أشد وأبلغ – وشرح ذلك يطول – وأنت إذا أتيت بذلك انتفعت به وإن لم تعلم أسراره، كما ينتفع شارب الدواء بشربه وإن لم يعرف طبائع أخلاطه ووجوه مناسبته لمرضه.

واعلم أن الصلاة صورة صورها رب الأرباب كما صور الحيوان مثلاً، فروحها النية والإخلاص وحضور القلب وبدنها الأعمال، وأعضاؤها الأصلية الأركان، وأعضاؤها الكمالية الإحسان، فالإخلاص والنية فيها يجريان مجرى الروح، والقيام والقعود يجريان مجرى البدن، والركوع والسجود يجريان مجرى الرأس واليد والرجل، وإكمال الركوع والسجود والطمأنينة وتحسين الهيئة تجرى مجرى حسن الأعضاء وحسن أشكالها وألوانها، والأذكار والتسبيحات المودعة فيها تجرى مجرى آلات الحس المودعة فى الرأس والأعضاء كالعينين والأذنين وغيرهما، ومعرفة معانى الأذكار وحضور القلب عندها يجرى مجرى الحس المودع فى آلات الحس كقوة السمع وقوة البصرة والشم والذوق واللمس.

واعلم أن تقربك بالصلاة كتقرب بعض خدم السلطان بإهداء وصيفة إلى السلطان، واعلم أن فقد النية والإخلاص من الصلاة كفقد الروح من الوصيفة، والمهدى للجيفة الميتة مستهزئ بالسلطان فيستحق سفك الدم لغفلة قلبه عن عظمته، وفقد الركوع والسجود يجرى مجرى فقد الأعضاء، وفقد الأذكار يجرى مجرى فقد العينين من الوصيفة وجدع الأنف والأذنين، وعدم حضور القلب فى غفلته عن معرفة معانى القرآن والأذكار كفقد السمع والبصر مع بقاء جرم الحدقة والأذن، ولا يخفى عليك أن من أهدى وصيفة بهذه الصفات كيف يكون حاله عند السلطان؟

هذا مثال العبد لعبد مثله، فكيف بمن يتقرب إلى خالقه ومبدعه المواجه لجماله العليِّ وعزته وعظمته، كيف يقف أمامه ويغفل عن عظمته؟ اللهم أعذنا من الغفلة خصوصاً عند القيام بعمل ما أمرت به، إنك مجيب الدعاء.

واعلم أن قول الفقيه فى الصلاة الناقصة ألفاظها وسُننها إنها صحيحة، كقول الطبيب فى الوصيفة المقطوعة أطرافها إنها حية وليست بميتة، فإن كان ذلك كافياً فى التقرب بها إلى السلطان ونيل الكرامة منه، فاعلم أن الصلاة الناقصة صالحة أيضاً للتقرب بها إلى الله سبحانه ونيل الكرامة، وإن أوشك أن يرد ذلك على المهدى ويزجر، فلا يبعد مثل ذلك فى الصلاة فإنها قد ترد على المصلى كالخرقة الخلقة، كما ورد فى الخبر من قوله ﷺ: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً)، واعلم أن أصل الصلاة التعظيم والاحترام، وإهمال آداب الصلاة يناقض التعظيم والاحترام.

ومن المحافظة على الصلاة أن تحافظ على روح الصلاة، وهى الإخلاص وحضور القلب فى جملة الصلاة، واتصاف القلب فى الحال بمعانيها، فلا تسجد ولا تركع إلا وقلبك خاشع متواضع على موافقة ظاهرك، فإن المراد خضوع القلب لا خضوع البدن، ولا تقول (الله أكبر) وفى قلبك شئ أكبر من الله تعالى، ولا تقول: (وَجَّهْتُ وَجْهِى) إلا وقلبك متوجه بكل وجهه إلى الله معرض عن غيره سبحانه، ولا تقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الفاتحة ٢، إلا وقلبك عامر بشكر نعمه عليك فرح به مستبشر، ولا تقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة ٥، إلا وأنت مستشعر ضعفك وعجزك وأنه ليس لك ولا لغيرك من الأمر شئ، وكذلك فى جميع الأذكار والأعمال، وشرح ذلك يطول وقد شرحناه فيما سبق لنا.

فجاهد نفسك فى أن ترد قلبك إلى الصلاة حتى لا تغفل من أولها إلى آخرها إن استطعت، فإنه لا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها، فإن تعذر عليك أن تكون حاضر القلب – وما أراك إلا كذلك – فانظر، فإن كان على قدر الغفلة مقدار ركعتين فلا تعد الصلاة، ولكن افهم أن النوافل جوابر للفرائض، فتنفل بمقدار أن يحضر القلب فيها فى مقدار ركعتين، فكلما زادت الغفلة فزد فى النوافل حتى يحضر قلبك مثلاً فى العشر ركعات بمقدار أربع ركعات وهو قدر فرضك، فمن رحمة الله تعالى عليك أن قبل منك جبران الفرائض بالنوافل.

فهذه أصول المحافظة على الصلاة، وقد بينت ميزان الخواطر فى الصلاة فى كتاب " أصول الوصول" ، فليرجع إليه مريد المحافظة على الصلوات، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون ٩.

وما من عمل من أعمال القربات كلها إلا ومشاهده لا تخلو من شوب إلا الصلاة لأهل الخشوع والمعرفة، فإن مشاهدها العلية ترفع الحجاب عن المرتبتين، حتى تحصل المواجهة بالمكانتين، فيكون المصلى مجملاً بأكمل حلل العبد الخاشع الخانع، والله سبحانه وتعالى مواجهاً له بمعانى الجمال الإلهى، حتى يكون فى كل تكبيرة مشاهداً، وفى قراءة كل كلمة من كلمات الذكر الحكيم مكاشفاً بمعناها، سامعاً بالسمع الذى منحه الله كلام الله من الله، ويكون فى كل ركوع وسجود فاراً إلى الله من نفسه ومن كل كائن، وبقدر فراره إلى الله يكون قربه منه، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ العلق ١٩، وإنما يقيم الصلاة من شهد معانى مكانته شهوداً يجعله يذكر ربه، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ طه ١٤، وقد أثنى الله تعالى على المصلين ثناء جعل الأرواح الملكية تغبط المصلين الذين أثنى الله تعالى عليهم، وقال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ النور ٣٧-٣٨.

ولما كانت التجارة والبيع لفظين عامين قد يُراد بهما تجارة وبيع الدنيا أو تجارة وبيع الآخرة، فإن العابد الذى يعبد الله لنعيم الجنة تاجر، والمؤمن الخالص الذى يبيع نفسه لله وماله لله بائع، والرجل الذى يخرج فى الأسواق بسلعته بائع، والذى يخرج بلا سلعة ليتوسط بين الناس وينتفع فى الأسواق تاجر.

والمؤمن الكامل لا تلهيه تجارة الدنيا والآخرة ولا بيع نفسه لله أو بيع سلعته لغيره للربح عن ذكر الله بمعناه الحقيقى الذى به تقام الصلاة، وإقامة الصلاة التى تكون عن الذكر كشف الستار عن حقيقتك، ورفع الحجاب عن الجمال والجلال والكمال الإلهى، بقدر ما وهب الله للعبد من عيون الكشف اللائق بعبد ممنوح، لا بقدر الجناب المقدس تنزه وتعالى،

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ الزمر ٦٧، وإنما هو قبس من لوامع جمال الفيض الأقدس، وبوارق لوامع جلال الكمال المقدس، قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ الصافات ١٦٤، هذا نذر مما يواجه به العبد المؤمن فى صلاته من مقامات القرب ومشاهد الحب.

وأما ما يُعطاه العبد المُصلى من أسرار المراقبة بصلاته، فإنه شهود نعيم ملكوتى، أو عذاب ملكوتى، فتكون تلك المشاهد منتجة للفرار من المخالفات والبعد عن المعاصى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، فذكر الله تعالى فى الصلاة الذى هو إقامتها أكبر، لأنه يحصل به الشهود الأكبر للمصلى، الذى ينتج عنه الرضوان الأكبر. وقد فصلت جملاً من البيان فى معاملة المصلين الذين يقيمون الصلاة فى كتاب "معارج المقربين" فمن أحب المزيد فليراجعه.

وهناك أسرار وأحوال وأنوار تمنح فضلاً للقلوب، لا ترسم بالعبارة ولا تبين بالكتابة، تجعل مقيم الصلاة على قلب رسل الله السابقين صلوات الله وسلامه عليهم، فينال كل مقيم للصلاة قسطاً وافراً من مقام رسول من رسل الله صلوات الله عليهم، فقد يكون على قلب سيدنا عيسى عليه السلام، أو قلب سيدنا موسى عليه السلام، أو على قلب سيدنا الخليل الأكبر صلى الله عليه وسلم. كل ذلك فضل الله يتفضل به على من وفقه وأقامه بين يديه، لم يقمه سبحانه إلا لمحبوب مراده. فقد يجتمع فى المسلمين عشرات من الملايين على قلوب الرسل صلوات الله عليهم، ويجمع الله لهم أسرار الرسل وأنوارهم وأحوالهم، فيقيمهم الله تعالى مقام رسله دعاة إليه، منهم من يمنحه لسان العبارة فيجذب القلوب بأنوار أقواله، ويسكر النفوس بسحر بيانه، ومنهم من يوده الله بالكرامات من مشكاة الأنوار التى هى سر معجزات من هو على قلبه.

كل ذلك لأن الإسلام هو دين الله حقاً، وأن الله تعالى يهب للعاملين بوصاياه أنوار وأسرار الرسل السابقين جميعهم، وكم ترى فى المسلمين فى كل زمان كثيرين يكرمهم الله بشفاء المرضى وإبراء الأبرص وإحياء القلوب الميتة، وتنويع الأفكار بالحال أو بالمقال أو بالدعاء، وبعضهم يفنى عن مراده بمراد الحق وعما سوى الحق، حتى يظهره الله به سبحانه نوراً لخلقه، فقد يقهره حاله فيقول للشئ كن فيكون إحياء للسُنة وإقامة لحجة الله على

خلقه، وهذا يستحيل أن يوجد لأهل الأديان الأخرى لأنهم ليسوا على الحق، ولو أراد الله هدايتهم لشرح صدورهم للإسلام، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

وقد اتضح الحق جلياً، وقامت حجة الله على الخلق أجمعين، وليس لأحد من الخلق على الله حجة، والله تعالى أسأل أن يمنحنى وإخوتى جميعاً الإخلاص لذاته العلية، والصدق فى المعاملة، والحب الخالص لجنابه العلىّ، والرضاء الكامل عنه سبحانه، والتوفيق لما يحب ويرضى، إنه على كل شئ قدير.

الزكاة والصدقة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ البقرة ٢٦١. وقال ﷺ: (حصِّنوا أَمْوَالَكُمْ بالزَّكاةِ وداوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدقةِ وَأَعِدُّوا لِلْبلاءِ الدُّعَاءَ)، ومعلوم أن إنفاق المال فى الخيرات أحد أركان الدين، ومعلوم أن المال محبوب الخلق، وهم مأمورون بحب الله عز وجل، ويدعون الحب بنفس الإيمان، فجعل بذل المال معياراً لحبهم، وامتحاناً لصدقهم فى دعواهم، فإن المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب، فانقسم الخلق فيه على قدر مراتبهم:

١ فمنهم الأقوياء وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوا ولم يدخروا لأنفسهم شيئاً، فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق إذ جاء بماله كله فقال له ﷺ: (ماذا أبقيت لنفسك؟فقال:الله ورسوله)، وقال لسيدنا عمر رضي الله عنه: (وماذا أبقيت لنفسك؟) قال: (مثله) أى: مثل ما أتيت به، فقال ﷺ: (بينكما مثل ما بين كلمتيكما).

٢ ومنهم المتوسطون وهم الذين لم يقدروا على إخلاء اليد عن المال دفعة واحدة، ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للإنفاق عند ظهور محتاج إليه، فهم يقنعون فى حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة وإذا عرض محتاج بادروا إلى سد حاجته، ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وإنما غرضهم الأظهر فى الإمساك ترصد الحاجات.

٣ ومنهم الضعفاء وهم المقتصرون على آداء الزكاة الواجبة، فلا يزيدون عنها ولا ينقصون منها.

فهذه درجاتهم، وبذل كل واحد منهم على مقدار حبه لله، ومن لا يقدر إلا على أداء الواجب فليجتهد حتى يزيد على الواجب ولو شيئاً يسيراً، فإن مجرد الواجب حد البخلاء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ محمد ٣٧. فجاهد نفسك يا أخى حتى لا ينقضى عليك وقت إلا تتصدق فيه بشئ وراء الواجب ولو بكسرة خبز لترفع بذلك عن درجة البخلاء، فإن لم تملك شيئاً فليست الصدقة كلها فى المال، لكن كل كلمة طيبة، وشفاعة، ومعونة فى حاجة، وعيادة مريض، وتشييع جنازة، وكل ما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطييب قلب مسلم؛ يكتب لك صدقة. وحافظ فى زكاتك وصدقتك على خمس أمور.

الأول الإسرار، فإن فى الخبر: (إن صدقة السر تطفئ غضب الرب)، والذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ البقرة ٢٧١. وبذلك تتخلص من الرياء فإنه إذا غلب على النفس، يهلك وينقلب فى القلب إذا وضع الإنسان فى قبره فى صورة حية، أى يؤلم إيلام الحية، والبخل فى صورة عقرب. والمقصود فى كل الإنفاق الخلاص من رذيلة البخل، فإذا امتزج بالإنفاق الرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية، فما تخلص من العقرب ولكن زاد فى قوة الحية، إذا كل صفة من الصفات المهلكات فى القلب إنما غذاؤها وقوتها فى إجابتها إلى مقتضاها.

الثانى أن تحذر من المن، وحقيقته أن ترى نفسك محسناً إلى الفقير متفضلاً عليه، وعلامته أن تتوقع منه شكراً، أو تستنكر تقصيره فى حقك وممالأته عدوك استنكاراً يزيد على ما كان قبل الصدقة، فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلاً، وعلاجه أن تعرف أنه المحسن إليك بقبول حق الله منك، فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، ولذلك كانت الزكاة مطهرة، إذ بها حصلت الطهارة، فكأنها غسالة

نجاسة، ولذلك ترفع رسول الله ﷺ وأهل بيته عن أخذ الزكاة، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنها أوساخ أموال الناس)، وإذا أخذ الفقير منك ما هو طهرة لك فله الفضل عليك، أرأيت لو كان فصاداً فصدك مجاناً وأخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره فى الحياة الدنيا كان الفضل لك أم له؟ فالذى يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها فى الحياة الدنيا والآخرة أولى بأن تراه متفضلاً.

الثالث أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ النحل ٦٢، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ البقرة ٢٦٧، وقال ﷺ: (إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب)، يعنى الحلال، فإن المقصود من هذا إظهار درجة الحب، والإنسان يؤثر الأحب إليه والأنفس دون الآخر.

الرابع أن تعطى بوجه طلق مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره، قال رسول الله ﷺ: (سبق درهم مائة الف) وإنما أراد ما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من أنفس ماله وأجوده، فذلك أفضل من مائة الف مع الكراهة.

الخامس أن تتخير لصدقتك محلاً تزكو به الصدقة، وهو المتقى العالم الذى يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه، أو الصالح الفقير ذو الرحم، فإن لم تجتمع هذه الأوصاف، فتزكو الصدقة بآحادها أيضاً، ورعاية الصلاح أصل الأمور، فما الدنيا إلا البلغة للعباد وزاد لهم إلى المعاد، فليصرف إلى المسافرين إليه المتخذين هذه الدار منزلاً من منازل الطريق، قال رسول الله ﷺ: (لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى).

هذا الركن الذى هو الزكاة هو العبادة المالية الصادقة، ولم تكن الزكاة بهذا التفصيل فى أنواع الأموال والمستحقين فريضة على ما أعلم فى غير ديننا، وذلك لأن الإسلام جعل كل فرد من المسلمين لكل فرد ككل عضو من الجسد لكل عضو، قال ﷺ: (مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه اشتكى كله)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج ٧٨، فجعل لنا سبحانه الأرض مسجداً وتراباً طهوراً، وأحل لنا الغنائم، وجعل الزكاة من كل أنواع الأموال، وعمم النفع بها لأنواع من الناس

حتى ظهر سر قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات ١٠، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ آل عمران ١٣٤.

من كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﷺ يظهر لنا مكانة كل مسلم فى المجتمع الإسلامى، ومكانة كل فرد من المسلمين، ومن فتح الله قفل قلبه ففقه سر فرضية الزكاة يعلم حق العلم أن العمل فى الدنيا عمل لله تعالى، وقيام بفرض عليه لإخوته المسلمين.

وإليك كشف شئ من رموز الزكاة:

١ الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن المجتمع الإسلامى عائلة واحدة، يدلى نسبهم إلى أب واحد هو رسول الله ﷺ، وأزواجه رضى الله عنهم أمهاتهم، وكما تجب النفقة على الغنى للفقير من والديه إذا عاقه عن العمل مرض ظاهر أو فساد فى قوة العقل، فكذلك يجب على الغنى أن ينفق على أخيه فى النسب الإسلامى بقدر ما أمره الله سبحانه وتعالى، فيكون الغنى يبر والده الأعظم رسول الله ﷺ فى ابنه الذى هو أخوه المسلم، قال ﷺ: (أدخل الإسلام بلالاً فى نسبى وأخرج الكفر أبا لهب من نسبى)، وقال ﷺ: (سلمان منا أهل البيت)، فالمسلمون أبناء رجل واحد هو رسول الله ﷺ، والغنى من المسلمين هو أخ الفقير وكنزه وخزينته، فلا يرضى أن يجوع أخوه وهو شبعان لأن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين، فإن الغنى عارية فلعله يأتى عليه يوم وهو فقير فيتمنى أن يعينه إخوانه، وما كان يتمنى الفقير منه المعونة.

٢ وسر ثانى أن تأدية الزكاة تلقى المحبة فى قلوب الفقراء، فينال منه عواطف تلك القلوب المتوجه إلى علام الغيوب، ومقبول دعاء تلك الألسنة المبتهلة إلى الله تعالى، وحب تلك النفوس التى ترى أنك يا أخى بإعطائك الزكاة إياهم نجيتهم من آلام الجوع والعرى، فيكون الفقراء لك زينة فى الرخاء، ودروعاً وسيوفاً فى الشدة.

٣ سر ثالث أنك يا أخى إذا أخرجت الزكاة طيبة بها نفسك، وعلمت أن هذا العمل فرض عليك، اعتقدت أن المال لله يتصرف فيه كيف يشاء، فتكون وفيت بالبيع الذى بعته لله

بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ التوبة ١١١، وتكون بنص تلك الآية الشريفة ممن بشرهم الله تعالى بالجنة.

٤ سر رابع بإخراجك الزكاة طيبة بها نفسك تعيش مطمئن القلب من خوف مصيبة أو بلية، صحيح البدن من خوف ألم أو من مرض، وذلك لأنك بإخراجك الزكاة يحصل لك انشراح صدر لاعتقادك أنك طهرت مالك، وحصنت نفسك بتأدية الزكاة، ومن يؤدى الزكاة على الوجه الذى أمر الله شاعراً بالرحمة بالفقراء والعطف على المسكين، فلا شك أنه يكون رحمانياً لا يظلم الناس لا فى بيع ولا فى شراء، ولا يسئ جاراً له، ولا يقطع ذا رحمه، ولا يعق والديه، ولا يسعى فى سوء أو فساد بين الناس.

وللزكاة أسرار غامضة يشهدها من أقامه الرب سبحانه خليفة عنه، حتى يكون المشاهد فى إخراج الزكاة خليفة عن ربه فى الإعطاء، عبداً مطيعاً لمولاه، وعاملاً مخلصاً من عمال الله، وعبداً مسكيناً فقيراً وهبه الله خير مواهبه، وواجهه بأجمل مواجهاته العلية، وتلك الأسرار لا تفى بها عبارة المعبرين، ولكنها نعمة من الله تعالى سر قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٢، وقوله ﷺ: (من عمل بما علم ورثة الله علم مالم يعلم)، والعارف إذا أشار للمريد السالك كانت الإشارة أفصح من العبارة له، قال ﷺ: (المؤمن يكفيه قليل الحكمة).

وهناك نوع آخر من أنواع الزكاة وهى تزكية النفس: قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ المؤمنون ٤، وقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الأعلى ١٤-١٥، وقال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس ٧-٩.

تزكية النفس فى الحقيقة الأصل الذى يؤسس عليه الأصول وتقوم به الفروع، ومن جاهد نفسه وهواه فى ذات الله بلغ غاية مناه، ومن أهمل تزكية نفسه كان كالحيوان الأعجم وإن عمل كل القربات، فهو إنما يقلد غيره كالقردة أو النسانيس ما دام لم يجتهد فى صفاء جوهر نفسه وتطهيرها من نجاستها، ومن زكى نفسه عرفها، ومن عرف نفسه عرف ربه.

وقد فصلتُ طرق تزكية النفس وتصفية جوهرها وعلاجها من أمراضها لإعادة الصحة

عليهـا، والمعدات التى تحفظ الصحة عليها فى مختصرنا هـذا فى باب الغرض من العبادة، وفى كتـاب "معارج المقـربين" فى قسم علوم النفس، وفى كـتاب "شراب الأرواح" ... إلى آخره، فأكتفى فى هذا المختصر بتنبيه أخى إلى العنايـة بتزكية نفسه حتى يمكـنه أن يقيم الصلاة ويؤتـى الزكـاة ويحج البيت ويصـوم رمضان، ويقـوم لله فى كل ما أوجبه عليه مشـاهداً أسرار حكمة أحكامه، وغوامض ما تعبدنا سبحانه وتعالى به، والله أسأل أن يمنحنا الفقه والحكمة والمعـونة عـلى طاعته وشكـره وذكره إنـه مجيب الدعـاء، وصلى الله على سيدنـا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الصيام

الصيام هو الفريضة التى هى ترك فى الحقيقة، وهو العمل الروحانى الذى يصير الإنسان فيه كالملائكة الروحانيين لترك ضروريـات الحياة الجسمانية ولوازم النفس الحيوانية، وهو رمز يشير إلى الإنـسان حيـوان وملك، فهو بقـوته الحيوانيـة يعمل أعمال البـهائم، وبقـوته الملكية يعرف الله ويعبده ويتـشبه بسكان ملكوته الأعلى، فيـترك لوازم قواه الحيوانية بـالصوم ليتذكر قوته الملكية، ولتطهر نفسه من كثافة التـوسع فى الأعمال الحيوانية، فإن النفس يقوى طمعها وميلهـا إلى الحرص والأمل والحماقة والخـيانة وبغض بـنى نوعه كلما تـوسعت فى كل ما يقوى الحيوانيـة، ويكون بذلك بعيـداً عن رتبة الإنسان قـريباً من الأنعام لتـشبهه بها، فإذا قلّل من ضـروريات حياته الحيوانيـة وتشبه بحياته الملكيـة من الصوم والنفقة كـان أشبه بالملائكة منه بالحـيوان، وكان الصـيام تزكيـة لنفسه وشفاء لهـا من أمراضها، وصفـاء لجوهرهـا، حتى تتكمل بكمالها الحقيقى الذى تكون به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمها الملائكة.

فالصـوم عبادة من حيـث أنه فرض فرضه الله، وشفـاء من حيث أنه يرد للـنفس صحتها، وتـزكية من حيث أنه جـلاء للنفس من التطـرف عن الجادة الوسـطى التى هـى الفضيلة، وبه تتجمل النفس بـالرحمة والـصلة والبر والإحسـان والتواضع، فيـكون الصائـم عبداً عاملاً لله بتركه ما نهـاه الله عنه من الأكل والـشرب وملامسة الـنساء ممـا أباحه الله لـه فى غير رمضان، فيكون متجملاً بجـمال الروحانيين، ومتخلقـاً بأخلاق الله من الرحمة والـعفة والإحسان والود والشفقـة، ومجاهداً نفـسه فى ذات الله بحبسها عـن شهواتها، فيكـون له بإطاعـة الأمر النعيم

المقيم، وبالتشبه بالروحانيين مشاهدة ملكوت الله، ونعيم النظر إلى وجهه سبحانه. فما أيسر ما ترك وما أعظم ما نال.

وقد شرحت أركان الصوم وسُننه وآداب الصائمين وتنزيه الصوم فى كتاب "أصول الوصول" و"معارج المقربين" ولكن رغبة فى الخير لأخى زودنى الله وإياه بفضله العظيم ورحمته أحببت أن أبين له مزيداً فى مختصرى هذا.

قال رسول الله ﷺ يقول الله سبحانه: (كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به)، وقال عليه الصلاة والسلام: (لكل شئ باب وباب العبادة الصوم)، وإنما كان الصوم مخصوصاً لأنه عملان عظيمان: أحدهما كف النفس، وهو عمل سرى لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى، لا كالصلاة والزكاة وغيرهما.

والثانى: أنه قهر لعدو الله، فإن الشيطان هو العدو، ولن يقوى العدو إلا بواسطة الشهوات، والجوع يكسر جميع الشهوات التى هى آلة الشيطان، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام: (إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع)، وهو سر قوله ﷺ: (إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنان وغلقت أبواب النيران وصفدت الشياطين، ونادى مناد: يا باغى الخير هلم، ويا باغى الشر أقصر).

واعلم أن الصوم بالإضافة إلى مقداره على ثلاث درجات، وبالإضافة إلى أسراره على ثلاث درجات، أما درجات مقداره فأقلها: الاقتصار على شهر رمضان، وأعلاها: صوم داود عليه السلام؛ وهو أن تصوم يوماً وتفطر يوماً، ففى الخبر الصحيح أن ذلك أفضل من صوم الدهر وأنه أفضل الصيام، وسره أن من صام الدهر صار الصوم له عادة فلا يحس بوقعه فى نفسه بالانكسار، وفى قلبه بالصفاء، وفى شهواته بالضعف، فإن النفس تتأثر بما يرد عليها لا بما مرنت عليه فلا يبعد هذا، وإن الأطباء أيضاً ينهون عن اعتياد شرب الدواء وقالوا: من تعود هذا لم ينتفع به إذا مرض إذ يألفه مزاجه فلا يتأثر به، واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان، وهو سر قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما لما كان يسأله عن الصوم

فقال عليه السلام: (صم يوماً وافطر يوماً، فقال: أريد أفضل من ذلك، فقال ﷺ: لا أفضل من ذلك)، ولذلك لما قيل لرسول الله إن فلاناً صام الدهر فقال ﷺ: (لا صام ولا أفطر)، كما قالت عائشة رضى الله عنها لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة: إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت.

وأما الدرجة المتوسطة: فهو أن تصوم ثلث الدهر، وإن صمت الإثنين والخميس وأضفت إليهما رمضان، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام وهو زيادة على الثلث، لكن لابد أن ينكسر يوم من أيام التشريق وترجع الزيادة إلى ثلاثة أيام ويتصور أن ينكسر فى العيدين يومان فتكون ثلاثة أيام، فترجع الزيادة إلى يوم واحد، فتأمل حسابه تعرفه، فلا ينبغى أن ينقص عن هذا القدر صومك، فإنه خفيف على النفس وثوابه جزيل.

وأما درجات أسراره فثلاث: أدناها أن يقتصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحه عن المكاره، ذلك صوم العموم وهو قناعتهم بالاسم. الثانية: أن تضيف إليه كف الجوارح فتحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر إلى الزينة وكذا سائر الأعضاء. الثالثة: أن تضيف إليه صيانة القلب عن الفكر والوسواس وتجعله مقصوراً على ذكر الله عز وجل، وذلك صوم الخصوص، وهو الكمال.

ثم للصيام خاتمة بها يكمل، وهو أن يفطر على طعام حلال لا شبهة فيه، وألا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته صحوة فيكون قد جمع بين أكلتين دفعة واحدة، فتثقل معدته، وتقوى شهوته، ويبطل سر الصوم وفائدته، ويفضى إلى التكاسل عن التهجد، وربما يستيقظ قبل الصبح، وكل ذلك خسران، وربما لا توازيه فائدة الصوم.

هذا ما كان عليه السلف الصالح، وقد بينت أركان الصوم وفرائضه فى الكتب السابقة فأكتفى هنا بما ألمعت إليه، والله سبحانه يوفق إخوتى المؤمنين للقيام بأركان الشريعة على وجهها الأكمل، وأن يمنحنى وإياهم مقام المراقبة فى الأعمال حتى لا يحصل منا تقصير يفسد العمل، ولا غفلة تنقص فضله، ولا أغراض ولا علل تجعله لغير الله تعالى إنه مجيب الدعاء.

الحج

لما كانت الأحكام الشرعية كلها لا يمكن أن يقوم بها العامل على وجهها الأكمل إلا إذا كان عاملاً بقلبه وجسمه، ولما كان كل ركن من أركان الأحكام الشرعية للقلب فيه عمل خاص وملاحظات خاصة، لا يمكن أن يكون العمل كاملاً شرعاً إلا باستيفاء تلك المعانى، ولو أن المسلم حرك جسمه بتأدية الأحكام الشرعية مع غفلة قلبه عن الاستحضار الذى يتمثل فيه لمن العمل، ولم العمل، ومن هو العامل، وما الغاية الباعثة عليه؟ كان العمل ناقصاً أو مردوداً لعدم استيفاء شروطه شرعاً.

وهذا لغفلة القلب فإن الأعمال البدنية صور ميتة، وإنما حياتها وروحها بالإخلاص فيها.

والحج هو الركن المالى البدنى الروحانى، أما كونه بدنياً فلانتقال الجسم من مكان إلى مكان، وأما كونه مالياً فلبذل الأموال فى النفقة على نفسه فى زاده وراحلته، وأما كونه روحانياً فلأن الحاج قاصد ربه بانتقاله، فهو لا يقطع مرحلة كونية إلا تقطع الروح مرحلة من مراحلها حتى تصل إلى جناب القدس الأعلى، ولهذه المعانى كلها أشار الله تعالى إلى أن من توفرت لديه معدات الحج وأهمله كان كأنه كفر، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ آل عمران ٩٧، أى: ومن كفر بترك الحج بعد الاستطاعة فإن الله غنى عنه وعن عمله، فالحج ظاهره الانتقال إلى مكة المكرمة، وباطنه فرار من الدنيا إلى الملكوت الأعلى بالروح، وإنما يشهد تلك المعانى من عمل بما علم عملاً مطابقاً لسُنة رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

ومن خرج من بيته مهاجراً إلى الله، موقناً أنه سيزول البين من البين، وتقع عين بصيرته على جمال مولاه العلى، كيف يكون حاله فى سيره؟ ولا أشك أنه يكون فى أرفع درجات الشوق إلى مولاه، وأكمل أحوال الخشوع والرهبة من ربه الذى خلقه ودعاه إلى حضرته العلية فلباه، لا تخطر على قلبه الدنيا لاستغراقه فى الشوق إلى الله، فلا ينتقل خطوة إلا ويشهد مشاهد تنمو بها صبوته، وتقوى حالته، وتجدد بها رهبته.

يشهد من كل ركن من أركان الحج مشاهد ملكوتية، فيشهد فى مقام الإحرام إخلاص القلب من كل حظ وهوى فى التوجه إلى الله، وتطهير السر من كل علة وغرض لمواجهة الله، وقطع كل علاقة بينه وبين أهله وولده إقبالاً على الله، ورغبة فيما عند الله، وحسن ثقة بولاية الله لهم، وهكذا لا ينتقل من ركن إلى ركن ولا من مكان إلى مكان إلا أشهده الله ملكوت كل مكان، وأسرار كل عمل من الأعمال، حتى إذا وقف على عرفات نفسه، فعرف ربه ورجع إلى بيت الوجهة بيت ربه الحرام، منيباً إليه بعد المعرفة، ذاكراً جنابه العلى، لا يشغله عن ذكر الله ذكر والد ولا ولد، بل ولا دنيا ولا آخرة، وعند ذلك يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ثم يتجلى الغفور التواب فيمنحه بدل كل سيئة حسنة، فيرجع وهو كيوم ولدته أمه مطهراً من الذنوب، وهو كمن عبد الله بأخلص نية طول عمره سر قوله تعالى: ﴿إِفَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الفرقان ٧٠.

ولولا أن هذا المختصر وضعته لأبين للناس أجمعين لا فرق بين المسلم وغيره أن الإسلام هو الدين، أكتفى بهذا النذر اليسير، وأذكر مالا بد من ذكره فى ركن الحج مما يحتاج إليه أخى المسلم، ومن ظهرت له جمالات الإسلام علم أن ما عليه القوم من الأديان الأخرى محض ضلال وتعصب قبيح للآباء، وذلك أمر بديهى إذا نظر نظرة مريد نجاة نفسه، وراغب فى الحق، وميزه عقله وفكره عن أن يقبل غير ما يتضح نوره ويظهر دليله.

أعمال الحج

قال ﷺ: (من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو إن شاء نصرانياً.....)، وقال ﷺ: (بنى الإسلام على خمس.....) الحديث، وللحج أعمال ظاهرة ذكرناها فيما سبق لنا من الكتب، ونريد أن ننبهك فى هذا المختصر إلى آداب دقيقة وأسرار باطنة.

أما الآداب فسبعة:

١ أن ترتاد للطريق رفيقاً صالحاً ونفقة طيبة حلالاً، فالزاد الحلال ينور القلب، والرفيق الصالح يذكر بالخير، ويزجر عن الشر.

٢ أن يخلى يده عن مال التجارة كى لا يتشعب فكره، وينقسم خاطره، ولا يصفو للزيارة قصده.

٣ أن يوسع فى الطريق بالطعام، ويطيب الكلام مع الرفقاء والمكارى.

٤ أن يترك الرفث والجدال والتحدث بالفضول فى أمر الدنيا، بل يقصر لسانه – بعد مهمات حاجاته – على الفكر وتلاوة القرآن.

٥ أن يركب راحلة دون المحمل، ويكون رث الهيئة أشعث أغبر غير متزين، بل على هيئة المساكين، حتى لا يكتب فى جملة المترفين.

٦ أن ينزل عن الدابة أحياناً ترفيها للدابة، وتطييباً لقلب المكارى، وتخفيفاً للأعضاء بالتحرك، ولا يحمل الدابة ما لا تطيق، بل يرفق بها ما أمكن.

٧ أن يكون طيب النفس بما أنفق من نفقة، وبما أصابه من تعب وخسران، وأن يرى ذلك من آثار قبول الحج، فيحسب الثواب عليه.

وأما أسراره فكثير نرمز منها إلى أمرين:

الأول أنه وضع بدلاً من الرهبانية التى كانت فى الملل كما ورد به الخبر، فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمة سيدنا محمد ﷺ، فشرف البيت العتيق وأضافه سبحانه على نفسه وجعله مقصد العباد، وجعل مع ما حوليه حرماً لبيته تفخيما لأمره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على أمثال الملوك ليقصده الزوار من كل فج عميق، ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين خضوعاً لجلاله، واستكانة لعزته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت، أو يحويه مكان، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم لذاته جل جلاله، ولذلك كلفهم سبحانه أعمالاً غريبة لا تناسب الطبع والعقل، ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية، وامتثال الأمر من غير معاونة باعث آخر، وهذا سر عظيم فى الاستعباد، ولذلك قال ﷺ: (لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً).

الثانى أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازياً له، فإن فيه تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر المستبصر، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل فى سكرات الموت، ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا، ومن ركوب الجمل ركوب الجنازة، ومن الالتفاف فى أثواب الإحرام الالتفاف فى أثواب الكفن، ومن دخول البادية إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هول قطاع الطريق سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه، ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته، ومن التلبية إجابة داعى الله عز وجل يوم البعث.

وكذلك فى سائر الأعمال، فإن فى كل عمل سراً وتحته رمزاً يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفاء قلبه، وقصور همه على مهمات الدين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا المعونة والتوفيق لعمل ما يحب، ويجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إلى عشاق التصوف

هذه مقتطفات من كلام الإمام أبى العزائم التى أملاها على خاصة تلامذته لتناديك إلى دراسة آثار هذا الإمام حتى تنعم روحك بالمشاهد العالية.

مراتب الشهود فى العبادة

١ القيام بأعمال الشريعة وفاء.

٢ ورعاية أدب العبودية صفاء.

٣ والفناء عن رعاية هذا الأدب اجتلاء.

٤ والرجوع على الخلق بعد الوصول إلى الحق عبودة واجتباء.

٥ والقيام بالحق للحق مقام جل اصطفاء.

وأكمل مقامات الاصطفاء أن يخبرنا الله تعالى أنه ظهر وستر بظهوره حبيبه فأقامه مقامه وكان هو جل جلاله المشهود للأرواح فى حال النيابة، وهذا المقام الفردى الأحمدى سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الفتح ١٠، وسر قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ الأنفال ١٧، ولأهل التمكين من أبدال أولى العزم شميم من هذا العبير ولكن بنسبة ما للعبد للعبد وما للحق للحق، سر قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ الأنفال ١٧، فأثبت لنا حربنا العدو ورد طغيانه وأثبت لنفسه القتل ولكنه سبحانه أثبت لنفسه الرمى الذى هو عمل حبيبه فى الحقيقة ليظهر ما لحبيبه عنده ولديه ومنه، والأدب فى هذا المقام تفويض الأمر لمن له الخلق والأمر فإنه الولى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧.

* * *

١ الوفاء هو القيام بما يطلب من العبد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ الرعد ٢٠.

٢ الصفاء هو تبادل الرضا بين العبد والمعبود بعد تحقيق الوفاء، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ البينة ٨.

٣ الاجتلاء نعيم شهودى عند العبد بعد تمتعه بالصفاء وهذا مقام الذوق.

٤ العباد المجتبون هم قوم اصطفاهم الله لنفسه بعد أن اجتازوا المقامات السابقة وطالبهم بالرجوع إلى الخلق للدلالة عليه ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ القلم ٥٠.

٥ الاصطفاء هو مقام كمل الرجال وهم أولى العزم من الرسل.

﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾

للعبودة شراب من عسل مصفى، وللعبودية شراب من طهور صاف، ولأهل العبادة شراب من ماء غير آسن، والأفراد يشربون بالعين فى مقام محو البين من البين ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ الصافات ١٦٤، وأهل الانفراد أثبتتهم المجالى بكمالاتها، ففنوا فيه عن شهود الفناء والجمع والبقاء والفرق، حتى كانوا به له منه لا يسير بهم وطر إلا إليه ولا تقع عيون أرواحهم إلا عليه، فهو معالم بين أعينهم لا يغيبون وهم بأعينه لا يحجبون، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ الأنعام ٣، فله الهوية المطلقة فى مقام التوحيد وله الظهور المطلق فى مقام الربوبية، وهو الظاهر والباطن غاب عن عيون نفخة القدس عظمة وعلواً لا جفوة وبعداً، حققهم بالعبودة الخالصة المخلصة، فكانوا محافظين به على مكانتهم وهو يحفظهم له به، والتفريد منه لهم ومنهم له، أفردوه سبحانه بالمحبوبية، وأفردهم سبحانه بالعبودة فى حفظ العبودية والعبادة، فهم العِباد العُباد المجملون بجمال العبودة فى مقام التفريد، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، جزاءً بما كانوا يعملون به لهم فيه منهم، سر قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ الأحقاف ١٦.

سر تنوع العبادة والشكر عليها

تنوعت العبادة للتدانى ... لتشرق شمس أسرار القرآن
ظهور المثنوية حال جمعى ... ومحو البين فى فرق البيان
بها النسب القريب مقام عبد ... يصح لمن تحصن بالأمان
وأهل القرب قد فقهوا فقاموا ... فجملهم بأنوار المعانى
صلاة فى صيام فى قيام ... جهاد للشهود لدى العيان
أرانى فى العبادة عبد ربى ... أراه ظاهراً عين العيان
يوفقنى لما يرضيه عنى ... ويرضينى برضوان الجنان
وحج فى زكاة فى ابتهال ... إليه ضارعاً فى كل آن
مقام عبودة قرب اتحاد ... ونور ألوهة والعبد فان
أنا عبد أرى ربى عياناً ... تنزه عن حلول أو مكان
تراه الروح فى الإقبال ربى ... سقانى خمرة رسمى دنانى
هى الآى التى لاحت لروحى ... بها جذبى إليه بلا توانى
أمامى ظاهراً حيث أولى ... أنال الفضل إحسان الحنان
يوفقنى فأعبده تعالى ... عجزت عن الثنا قلبى لسانى
أمد العبد بالإيجاد فضلاً ... أعان على العبادة والتدانى
عجزت عن الثنا عن حصر نعمى ... توالت من أياديه الحسان
بفضل منه زكى النفس ربى ... فأشبهت الملائك بالجنان
كأنى سائح فى نور قدس ... يحيط الوجه بى فى كل شان
وشكرى نعمة منه تعالى ... علىَّ وقد عجزت عن البيان
لك الشكر الجميل لك الأيادى ... فجملنى بأسرار القرآن
وأيدنى بروح منك ربى ... لأسعد منك بالحسنى حنان

الفهرس

مقدمة ٥
العبادة الخالصة ٦
الحب فى الله ٦
العابدون عمال الله ٧
تعريف العبادة ٧
الغرض من العبادة ٨
العبادة عمل من أعمال القلوب والجوارح ٩
خلصوا العبادة من الشرك ٩
العلم والعمل فى العبادة ١٠
مراتب العلم ١١
العدل والإحسان فى العبادة ١٢
حكمة العبادة ١٢
الأمراض التى لا يمكن إزالتها إلا بالعبادة ١٤
الفضيلة وسط بين رذيلتين ١٦
مشهدان فى العبادة ١٧
التعصب للدين والعبادة ١٨
أقسام العبادة ١٩
العقيدة التى يجب أن يعقد المسلم قلبه عليها ١٩
الصلاة ٢٣
المحافظة على الصلاة ٢٥
الزكاه والصدقة ٢٩
الصيام ٣٤
الحج ٣٧

أعـمال الحج ٣٨
إلى عشاق التصوف ٤١
مراتب الشهود فى العبادة ٤١
﴿وَسَقَيهُم" رَبُّهُم" شَرَابًا طَهُورًا﴾ ٤٢
سر تنوع العبادة والشكر عليها ٤٣
الفهـرس ٤٤

almashahed
www.almashahed.com